وقفة مع الحبوبي النجفي

الدكتورة عائشة الحرزجي

لاتخلْ ويكَ ومن يسمعْ يخلْ
أنني بالراح مشغوف الفؤادْ
أو بمهضوم الحشا ساهي المقلْ
أخجلت قامتهُ السُّمْرَ الصّعادْ

إنّ لي من شرفي بُرْداً ضفا هو من دون الهوى مرتهني
غير أنيّ رمت نهج الظرفا عفة النفس وفسق الألسن

إذن كان الحبوبي من الظرفاء ينتهج نهجهم ويقتفي أثرهم ! ولعلك سائل إيايّ وما نهج الظرفاء هذا ؟ فيسرع الحبوبي ليردّ عليك :

عفة النفس وفسق الألسن . . . (١)

ولعلك تلحظ من التناقض بين النفس العفة واللسان الفاسق فتتساءل منكراً في

(١) في ديوان الحبوبي بعض معاني الظرفاء من مثل قوله :

قالت تحرج قلت لا حرج ما في الغرام على امرئ حرج

سِرُّك كيف لعمرك يكون الجمع بين هذين ؟ ولا يذهبن بك الظن أن الحبوبي هو أول من جمع بينهما ، فلعلك تذكر معي قول ذلك العراقي الظريف الذي تقدم الحبوبي بقرون . . . اقول لعلك ذاكر معي قول العبّاس بن الاحنف :

أتأذنون لصبٍّ في زيارتكم ... فعندكم شهوات السمع والبصرِ
لايضمر السوء إن طال الجلوس به ... عَفّ الضمير ولكنْ فاسق النظرِ (١)

وإن شئت أن تحيط بمعنى الظرف والظرفاء فلا عليك إلا أن تقرأ الوشاء في موشّاه لتقف على هذه الطبقة المترفة من الناس كيف كانت تحيا في بغداد اواسط القرن الثاني للهجرة ، وديوان الحبوبي من الفه الى يائه شاهد عدل على أن صاحبه شاعر غزل من الطراز الرفيع وأن هذا الغزل يصدر عن احساس عميق وتأثر حقيقي بالجمال . . .

حتّام ياقلب وراء الملاح ... تصفق من وجدك راحاً براح
كم راعك الوجد وكم جئتني ... من مرهف الاجفان تشكو الجراح ! (٢)

وموضوع الغزل على ماهو بيّن يحتل الصدارة في ديوان الرجل وأنه من النفاسة بحيث يجعل منه أغزل شاعر عراقي منذ أن نهض الشعر في القرن التاسع عشر وحتى هذه اللحظة . . .ولعلنا لانبعد عن الصواب أن لو قلنا لك اننا لم نقرأ لسواه بين شعرائنا ممن طرق هذا الباب شعراً يوازي شعره أو يقرب منه من حيث الوزن او الكمّ . . فالغزل لدى اغلب معاصريه غرض تقليدي تمهيدي لاروح

---

(١) انظر ديوان العباس بن الاحنف طبعتنا المحققة (دار الكتب ١٩٥٣) .ولك ان تعلم أن بين بعض معاني الشاعرين التقاء وتقاربا يقول الحبوبي :

تزيد حسناً اذا ما زدتها نظراً

ويقول العباس :

يزيدك وجهه حسناً ... اذا ما زدته نظراً

(٢) ديوان الحبوبي ٢٦٦ .

فيه ولا حياة أو هو مادي حسي وربما ماجن نواسي(١) وربما قرأته فما التفت اليه أو ربما وقفت عنده فانكرته أو أثار في نفسك النفور أو الاشمئزاز .

ولك أن تسألني من بعد ما خصائص هذا الشعر الذي جعل من شاعره عندنا اغزل شاعر عراقي في هذه الفترة من الزمان ؟

إن غزل الحبوبي هذا بارع رائع بالغ حدّه في البراعة والروعة يصدر عن عاطفة حقيقية وحس رهيف وتأثر عميق بالجمال وفهم لأسراره . . . والحبوبي على ما يبدو لنا شاعر خلق بطبعه للهيام بالجمال وفطر على عبادة الحسن وهو قطعاً صنو الشريف الرضي في هذا المجال ولئن كان الشريف عندنا أغزل شاعر عربي على الاطلاق فليس بكثير من ثم أن يكون خلفه أغزل شاعر عربي عراقي منذ أن نهض الشعر العراقي في القرن التاسع عشر وحتى هذه اللحظة . . .

والغريب ان الاسباب التي اتفقت من قبل للشريف تكاد تكون في جوهرها عين الأسباب التي تهيأت للحبوبي من بعد . . . ولا عجب فالزمن يقفو الزمن والتأريخ يعيد نفسه . . .

يقول استاذنا المرحوم الدكتور محمد مهدي البصير في معرض الموازنة بين الرجلين :

« فكلاهما شاعر فحل وكلاهما طريف الغزل عفيفه الى حد بعيد وكلاهما مترفع عن التكسب بالشعر ترفعاً تاماً وكلاهما صاحب فقه وصلاح وورع وكلاهما موفور الحظ من الجاه والمال وكلاهما رجل عمل وكفاح ايضاً » (٢)

والغريب ان هذا الشاعر الغنائي الرائق المعجب لم يلتفت اليه النقاد كثيراً ولم

---

(١) لعل سائر شعر الاخرس الذي يصدر به مدائحه تقليدي أو نواسي .
(٢) انظر نهضة العراق الادبية .

يولوا شعره بعض مايستحق من عناية ونقد ولولا أنّ استاذنا الدكتور البصير خصّه بفصل في كتابه الرائد : نهضة العراق الأدبية في القرن التاسع عشر لجاز لنا ان نقول ان شعر الحبوبي على روعته ونفاسته بقي مهملاً . . . فليس لديوان الحبوبي حتى هذه اللحظة طبعة علمية تجدر بمكانه وفضله .

ويبدو لنا من حصيلة شعر الرجل في موضوع الغزل ان ملهمته امرأة حقيقية ليست من صنع الوهم والخيال . . . فالشاعر يفصل لنا معالمها الحسية ويرسمها لنا رسماً واضحاً دقيقاً كأننا منه امام ريشة مصور صناع يروعنا من لوحاته جمال الألوان وتجسيد الملامح واشاعة الحياة في كل جزء من اجزائها . . . والصورة عينها هذه تتكرر في كل لوحة . . . ففتاة الحبوبي وحفاء الشعر مسبلة الجدائل بيضاء اللون ساحرة العينين زجاء الحاجبين حواء الشفتين وهي الى ذلك مرهفة القد (١) رقيقة الخصر ثقيلة العجز على نحو ماتتسم به سائر عرائس الشعر وهي فيما يبدو لنا كرخية المقام لأن الكرخ أبداً على لسان الشاعر على أنه يقول لنا في أحيان أخرى ان صاحبته نجدية حجازية . . ومن يدري ! فلعل للشاعر ملهمتين احداهما بغدادية كرخية والأخرى نجدية حجازية لاسيما ونحن نعلم ان الشاعر امضى جانباً من عمره بالحجاز .

---

(١) لعل هذه الصورة عينها مكررة في كل شعره الغزلي :

ما أحيلاه مائساً يتثنى بشيهب من الصبا وبرود
وأحيلى سود الغدائر تسعى كالافاعي من فوق بيض الخدود
هالة الحسن من سناه استنارت فاستدارت بغيهب من جعود
ديوان الحبوبي ٢٨٩

في بدور اشرقت بين الخدوج تخذت من فاحم الجعد بروج
ديوان الحبوبي ٢٢

ماحيلتي والكرخ دار له ديوان ٢٩٦

ذكرني بالكرخ عهد مرَبّي ديوان ٢٩٧

ياراكب الوجناء يطوي بها مهامه البيد قفاراً قفارا

عَرّجْ على الكرخ وسلم على مَن في مُحيّاه الوجود استنار

ديوان ٢٦٠

مهاة لها بالقلب مرعى وملعب وإن نزلت من ارض نجد تلاعها

ديوان ١٣٩

والشاعر كالشريف الرضي تحرجه مكانته ان يقال عنه صاحب هوى وحبائب لذا تراه أبداً يتستر على نفسه ويحاول ان ينكر على قلبه صفة العشق ولكن تأبي الحقيقة إلا أن تنكشف ويأبى الشعر إلا ان يبوح :

قد تعاهدنا على أن لا أبوحْ فاملأن لي باسمه كأس الصبوح

فهي راح وهي رَوْحٌ وهي روحْ وهي من داء الضنا برء الضنا

غنني باسم الذي لذ اسمه حَرْبُهُ حربي وسلمي سلمه

جسمُهُ روحي وروحي جسمه أنا من أهوى ومن أهوى أنا

صح هذا في الزمان الأول

وإذ تروعك حرارة العاطفة في شعر الرجل تروعك كذلك فيه لوعة الحرمان فهو كالشريف تماماً عاشق عفّ قضي عليه بالحرمان :

صَبا لك يابنة البكريّ قلبي فمهلاً لاعدمت هواك مهلا

جعلت لك القضا أمراً ونهياً فما شئت احكمي جوراً وعدلا

وقلت فتاك مقتول فقالت اذا ما الحب أفرط كان قتلا (١)

(١) ابن الفارض يقول :

وعش خالياً فالحب راحته عنا وأوله سقم وآخره قتل

بروحي من بروحي افتديها وقلّ لها الفدا مالا وأهلا
فيا شهب الثريا سامريني فلو كان السمير سواك ملا
ولو اني تصدقني الاماني لكنت اليوم اجمع منك شملا
مضى زمن الوصال وكان وافى كظل غمامة ثم اضمحلا

ويقول :

بلادك نجد والمحبّ عراقي فغير التمني لايكون تلاق
بلى قد ارى تلك المغاني مثله فاحسب اني زائر وملاق (١)
ارى الدهر يأتي في تآلف شملنا كأني أعاديه فرام شقاقي

والارجح عندنا ان صاحبته هذهعراقية قضت ظروف خاصة عليه بالحرمان منها وضرب الفراق بينهما بسهمه . .ويعرض لنا الحبوبي في شعره صورة هذا الحرمان :

هي الشمس مرآها بعيد وإن يكن تخيلت الايدي تنول شعاعها (٢)

ونحن اذا تخطينا حرارة العواطف وفرط اللوعة وتجسيد الصورة في هذا الغزل النفيس فنحن نلحظ فيه ايضاً رقة وعذوبة بالغتين هما طابع الحبوبي الخاص ولعلهما في هذا الباب اظهر ما يكونان .

---

(١) اقرأ كذلك قوله :

اصبحت روحي في مثل الخلال ديوان الحبوبي ٥٣

(٢) يقول العباس بن الاحنف :

هي الشمس مسكنها في السماء فعز الفؤاد عزاء جميلا
فلن تستطيع اليها الصعود ولن تستطيع اليك النزولا

والمعنى نفسه عرضه البحتري في ثوب المديح :

دنوت تواضعاً وعلوت قدراً فشأنـاك انحدار وارتفاع
كذاك الشمس تبعد ان تسامى ويدنو الضوء منها والشعاع

ولئن تشابه الشريف والحبوبي في حرارة العواطف وصدق الانفعال وحرقة اللوعة وبرعا اشد البراعة في نقل كل ذلك بشعر عذب رائق إلا أن فارقاً رئيساً يقوم بين الشاعرين عائد فيما يبدو لنا الى طبيعة الرجلين هو أن الشريف أمعن بتصوير المعاني الروحية والحبوبي اعلن بتصوير الحسية منها فالشريف دون ادنى شك خير من صور نفسية العاشق وخلجاتها في شوقها وحرمانها والحبوبي دون ادنى شك ابرع من صور معاني المعشوق الحسيّة ووضح معالم الجمال فيها . . . وإلا فمن بالله يرقى الى ماارتقى اليه الحبوبي في وصفه البارع للجمال ؟ (١)

شمس الحميا تجلت في يد الساقي فشع ضوء سناها بين آفاق
تسعى اليك بها خود مراشفها أهنى واعذب مما في يد الساقي
مسودّة الجعد لولا ضوء غرتها لما هدتني اليها نار اشواقي
يهدي اليك بمرآها ومسمعها جمال يوسف في الحان اسحق
لاتلبس الوشي الاّ كي يزان بها كما يزان سواد الكحل بالماق
تزيد حسناً إذا مازدتها نظراً كالروض غبّ رفيف القطر مهراق
رقت محاسنها حتى لو اتخذت عرشاً بناظرتي لم تدر آماقي

أو قوله :

عرائس الحبوبي
في
روائع النسيب

أغيد كالدمية أقـــراطـــه قد علقت تعليق اوثان
يامن رأى في الارض بدر السما اشرق في صورة انسان

(١) لعل من روائع مـــا وصف به الحسن قول ابي الطيب المتنبي :
حسان التثني ينقش الوشـــي مثلـــه إذا مسن في أجســـامهن النواعـــم
ويبسمن عن در تقـــلدن مثلـــه كأن التراقي وشـــحت بالمباســـم

جال فؤادي إن مشى مثلما في خصره جال الوشاحان
وافى وقد شعّ صباح الدجى فقلت قد شعّ صباحان
والراح في راحته شعلة تؤجج الليل بنيران
يالائميّ اليوم في حبّه مهلاً فما شأنكما شاني
هاموا هيامي فيك لو انهم قد عرفوا معناك عرفاني

فانت ترى ان براعة الشاعر في وصف المعاني الحسية عجيبة ولعل هذا هو السرّ في تخير هذا الشعر للغناء :

لح كوكباً وامش غصناً والتفت ريما فإن عداك اسمها لم تَعْدُك السيما

الحق ان الحبوبي بلغ القمة في هذا الضرب من الشعر والسّر هو انه ينقل عن تجربة ويترجم عن حس بالاضافة الى تكامل الملكة الفنية وتهيؤ اسبابها له ويكاد يكون سائر ماله في هذا الباب من عيون الشعر ومختاره (١) وربما خطر لك ان بعض هذه الصور أو سائرها قديم متداول ولكني اسرع لاقول لك انها طبيعة عصر الشاعر ، والشاعر أو الفنان أبداً وليد عصره وترجمانه وإخالك تلحظ معي طابع الشاعر الخاص من الروعة والنفاسة والخفة والظرف مما يرتفع بها عن الرخص أو الابتذال . .

---

(١) اقرا قوله :

مليكة عرشها قلبي به سكنت ودر دمعي حياها فتوجها
ديوان ٢٩٨

وقوله :

سفكت مياه الحسن وجنتها فغدت عليها تسفك المهج
رقمت محاسنها فلو بلغت روحاً لراحت فيه تمتزج
ديوان ١٣٩

هذا على ان للمعاني الروحية مكاناً في شعر الرجل قد يقرب من المتصوفة او يكاد . . .

روحي في روحك ممزوجة وربما تمزج روحان
حتى كأني منك في وحدة لو صحّ ان يتحد اثنان
اهواهم لم أهو إلاّ همُ هوى تلاشى فيه جثماني

وروحانية الحبوبي هذه تغمر بعض أجواء شعره بالاضافة الى نسيبه ، فنراها تهيمن على بعض مراثيه نخص بالذكر منها نونيته العصماء في رثاء السيد حيدر الحلي ولك أن تقرأها لترى أيّ جوّ صوفي يغمرك ويشدك الى المتصوفة الاوائل من السلف الصالح ولترى من ثم نفسك تسبح في جو عرفاني فيه إمتاع وفيه غموض وفيه أسرار . . الى جلال يهيمن عليك لاتدريه او تدريه . . . انه جو ابن عربي والحلاج وابن الفارض . . . يعود من جديد . . .

الى النزوان العيس تلوي أعنة وهيهات ليست تملك النزوانا
وليست تشيم البرق من ابرق الحمى بلى قد تشّم الشيح والعلجانا
وليست تنال الريّ عبّا وعلهّا إذا ظمئت أن تبلغ الرشفانا

والتي يقول فيها :

وقم نجتل النار التي قال خابط من الناس حسبي أن رأيت دخانا
وأن لمعت فاقصد لمشرق ضوئها وام شروق الضوء لا اللمعانا
ولا يختلسك الوهم دون مكانها فثم والا لا تحلّ مكانا

وقد يرتقي القمة إذ يقول في وصف الدنيا :

بلى نحن في طيف الكرى وتظننا من السكر يقظى لابطيف كرانا
بمعشوقة لم تَرْعَ ذمة عاشق وشنآنة لم نولها الشنآنا

نرى وصلها وهو المحال فريضة كما أوجبت هجراننا وجفانا (١)

هذا على أن الأثر القرآني واضح في هذا الشعر كل الوضوح يسمه بسمة خاصة ترفعه وتميزه فكثيراً ما اقتبس من آي القرآن الكريم ووشى عبارته باللفظ الموحي والكلام المنزل .

ذي نون حاجبه لو حاؤه اتصلت

في ميم مبسمه لم تَعْدُ حاميما(٢)

. . . .

ام بذاك القرط ذو اللبّ افتتن

اذ تجلى وعلى العرش استوى (٣)

. . . .

ذو قدور ملأت صدر الفضا

راسيات أو جفان كالجوابي (٤)

وانت ترى بعد روعة الأقسام الروحانية ترد في شعر الرجل بين الحين والحين .

قسماً بالراقصات الضُمّر

تترامى للمصلى والحجون

وبمن بات ثلاثاً بمنى

ومبيت الركب في روضة خاخ(٥)

---

(١) من الانصاف ان يذكر ابو الطيب هنا :

وجدنا اذى الدنيا لذيذاً كانما جنى النحل اضعاف الشقاء الذي نجني

(٢) و (٣) و (٤) و (٥)

ديوان الحبوبي ٩٩ ، ٤٥ ، ٥٠ ، ١١

هذا الى ان روح الاسلام تتجلى بهيّة رائعة في معانيه وما قرأت من قبل شاعراً يقول لحبيبه : (١)

طفت سبعاً حول مغناك كمـــا قمت أقضي صلوات الشوق خمساً

فأنت تقرأ الطواف والصلوات الخمس في معاني العشق وتحس ان هذه الالفاظ جاءت في مواضعها ووضعت حيث ينبغي لها أن توضع .

الى ذلك قد نلحظ في بعض شعره من معاني الكلاميين كأن نراه يقول :

وشوقي اليك بقلبي غـــدا كروح لجسم وجسم لروح

فهاك متون الهوى جمـــلة أبتْ ان تفصلهن الشروح !

ومعان مثل هذه انسجمت وروح الرجل واضافت اليها روحاً جديدة .

* * *

وائمة الرجل في الشعر — فيما يبدو لنا ثلاثة :

الشريف الرضي والمتنبي وابو عبادة البحتري ، وناهيك بشعر يصدر عن مثل هذه المصادر . . . ! واثر الرضي والمتنبي باد في معنى شعره وروحه حتى إنك لتحسه إنما ينقل عنهما نقلاً ومابه إلا اعجاب التلميذ بالاستاذ ينقل عنه وما يدري ! .

يقول الحبوبي :

وافترّ عن درّ تشنفّ مثلـــه فتشابها والكل راق بوصفه (٢)

---

(١) نستثني من ذلك العلامة الشاعر محمد رضا الشبيبي الذي يقول :

مـــا زال في الصلوات الخمس ذكركم نجـــوى مصـــلاي أو تســـبيح محرابي

لم ادر مـــا اتهجى غير انـــكم في اللحن لحني وفي الإعـــراب إعرابي

(٢) اقرأ قافية الحبوبي التي اولها :

مـــا لقـــلبـــي تهـــزه الاشـــواق خـــبرينـــا اهـــكـــذا العشـــاق

والثانية التي اولها :

« عليك سلام الله ما غردت ورق » التي يقول فيها .

احبك حبـــاً لست أدري خواطر من الحبل تعروني لذكرك ام عشق

فأخرس عن نطقي وتجري محاجري بسري وكاد القلب اذ ذاك ينشق

تجد فيها روحاً من انفاس الشريف

وابو الطيب يقول :

ويبسمن عن درّ تقلّدن مثله كأنّ التراقي وشحت بالمبـــاسم

والحبوبي يقول :

لقد طال عهد البين بيني وبينهم واشجان قلبي باقيات كما هيا

ويقول الشريف :

ومن حذر لا أسأل الركب عنكم واعلاق وجـــدي باقيات كما هيا

ويقول الحبوبي :

جددت بي عيشها المقتبـــلا وغدت تنجز وعـــد المخلف

ويقول الشريف :

واقتصّ للحقب المـــواضي بل تزوّد للبـــواقـــي

ويقول الحبوبي :

وبمن يجررن رَبْطَ الأزُرِ

والشريف يقول :

وأمست الريح كالغيرى تجاذبنا على الكثيب فضول الريط واللمم

ونحن لانشك مطلقاً في أنه تخرج في موسيقاه على موسيقار العربية الاول اعني ابا عبادة الوليد بن عبيد البحتري . . . فالحبوبي كالبحتري تماماً يوائم بين لفظة ولفظة ولا يدخل حرم الشعر لفظة غريبة اللهم إلا في ندرة تقرب من المحال وسيجيء الكلام في هذا بعد . . .

وكما تخرج شاعرنا على اساتيذ في دولة البيان كذلك هو الآخر خرّج لنا أئمة في هذا الباب ولا أشك مطلقاً في ان شاعر الحب والجمال اعني بشارة الخوري تخرج على مدرسة الحبوبي في الخفة والظرف والعذوبة وكلما قرأت للحبوبي داليته

التي أولها :

لك قامـــة تدعى بصعـــده وسهام لحظك ما أحـــده !

والتي يقول فيها :

هل غير خـــدك جمـــرة تقـــد الجوانح وهي ورده
فانظـــر الى قمـــر الدجـــى سيريـــك طلعتـــه وجعـــده

تراءى امام عينيّ الاخطل الصغير ينشد :

رضيتْ وقد ذهب الجفا وكـــذا الهـــوى لين وشده (١)

أوكلما استنشدت الحبوبي خريدته :

ياحامل الوردة ما الطفـــك ! فهل ترى لي اليوم ان ارشفك ؟

وقف ازائي الاخطل الصغير يتحفني بروائعه . . .

ولك ان تذكر بعد هذا ان الحبوبي وإن كان بحتري الديباجة في الرقة والانسجام والعذوبة إلا أنه دونه في براعة الفن وروعة الوشي وسرواة البديع ولاعجب فابو عبادة في هذا فرد لم يسبقه الى ذلك متقدم ولم يلحق بشأوه متأخر ، اللهم إلاّ إذا استثنينا من المتقدمين العباس بن الاحنف في روعة مقابلاته ومطابقاته واحمد شوقي من المتأخرين في سحر الموسيقى وطلاوةالاسلوب ولا يخلو شعر الحبوبي من عناية باللفظ واحتفاء بمحسناته فقد تلحظ في شعره الطباق المستملح او المقابلة الطريفة .

يحَيّى الوافـــدين ندىاك غيثاً فيحيُي مُمْحِلاً ويُميتُ محـــــلا

أو

أجرتْ سحاب دموعـــك الدمن فاليوم سرك في الهوى علن

أو ربما تهيأ له الجناس الموفق الجميل .

---

(١) ديوان الاخطل الصغير بشارة الخوري : ٥٦

للراح في راحتنا اكؤس كانها ياسعد تيجان

أما تقسيماته فحدث عنها ولا حرج تذكرنا تارة بتقسيمات العباس بن الاحنف التي قيل فيها « انها احسن من تقسيمات اقليدس » ونحن بدورنا نقول في الحبوبي ماقيل في العباس من قبل، وتذكرنا اخرى بتقسيمات البحتري لما فيها من براعة في الهندسة وجمال في الايقاع (١) . . . بل ربما اجتمع للشاعر فنان من فنون البديع في بيت واحد كأن تقرأ له التورية والمقابلة معاً في بيت واحد :

ومن شقوتي ان يحكم البين بيننا وياشدّ ما أشقى الزمان سعيدا

وقد يحلو له أن يرد العجز على الصدر كأن يقول :

ظعنوا أُهيل محجر سحراً سَحَراً اهيل محجر ظعنوا

ولعل اشد مايبهرنا في شعره روعة تشابيهه وانت تعلم ان الشاعر الوصّافة أول أدواته التشبيه لأن براعة المصور تقتضي ذلك :

في مروج كمروج الذهبِ

والثريا مثل كف بضّة

روعة التشابيه

او كعنقود بدا من فضة

وسهيل خد خود غضّه

---

(١) يقول الحبوبي :

فبرق يشب ، وعيس تخب ، وريح تهب ، وطيب يفوح

ويقول :

خداك من ورد ، ومن نرجس عيناك ، والقامة من بان

وتقول :

فالصدغ من آس ، ومن نرجس عيناك ، والخدان من جلنار

اقول : أو ليس هذا النفس بنفس البحتري ؟

فانت ترى كيف استلهم الشاعر صوره ، إن الطبيعة بسحرها وروعتها تتراءى في مرآة الشاعر امرأة حسناء فالطبيعة في عينيه الحسناء أو الحسناء في عينيه الطبيعية كلاهما واحد لايتجزأ :

عارض الشمس جبينا بجبين
لنرى ايكما اسنى سنى
واسب في عطفك عطف الياسمين
وانثن غصناً إذا الغصن انثنى

إذن من هنا جاءت براعته في وصف الطبيعة فهو يرى في كل جزء من أجزائها ظلاً من ظلال المحبوب فشاعرنا يعشق الجمال المطلق جمال الوجود سواء اكان في ذات بعينها أم في العالم كله وهذه ظاهرة يقوم عليها شعر الرومانسيين اطلاقاً وما شعر لامارتين عنا ببعيد فانت إذ تقرأ لامارتين في تأملاته Les Méditations تراه منصرفاً الى موضوعات ثلاث لايكاد يحيد عنها : الله والطبيعة والنفس والامر كذلك لدى الحبوبي واسماعيل صبري وسواهما من الرومانسيين المحدثين .

ومادمنا في معرض الكلام عن الوصف فلايفوتنا إذن ان نشير الى ان الحبوبي ممن وصف الخمرة وبرع في وصفها وان ذلك لايعني انه ممن ذاقها أو صحبها وخمرته دون ادنى ريب رمزية هي وخمرة ابن الفارض سيّان : الخمرة الالهية سكر بها الشاعر وفي غيبوبته استوحى معاني الوجود واستجلى اسراره مستشفاً الحجب ليجلوها من بعد بريشته الملهمة . . .

خمرة عتقها الدن سنين فأقامت وهي لاتبغي حِوَلْ
ادركت عهد الملوك الأولين ورأتهم دولاً بعد دولْ

فهي في بطن الحوائيت جنين وهي تروي سير الفرس الأول
أبداً تجلى ويجلى القمرُ فيرى ثم لها سرٌّ أنيق
طاب في ظل حشاها السّمَرُ إذ بدت تحسَبها نار الفريق
واذا الركب رأوها أبصروا واضح النهج وقد ضلّوا الطريق
هاتها تشرق في اكوابها صبغت ثوب الدجى لون الصباح
علّ نفسي من ضنى أوصابها تجد البرء ويبروها ارتياح
وانعتنها ويك في ألقابها فهي رَوْح وهي رُوح وهي راح

واخوانيات الشاعر عندنا تحتل المرتبة الثالثة في شعر الرجل بعد الغزل والوصف ونحن نُضَمِّن اخوانياته ومدائحه وتهانيه ومراثيه . . . لأن الحبوبي مِمّن عرفنا شاعراً لايصطنعهالشعر إنما هو يصطنع الشعر ترجمان قلب ورسائلوجدان وديوانه حافل بروائع اخوانياته بين موشح وقريضوهو محسن في هذا الباب احساناً لامجال للشك فيه لأنه يغرف من نبع قلبه ويسقي من ذوب وجدانه أو ليس الحبوبي هو الذي يخاطب أحد اخوانه بمثل هذا ؟

واني قد قرضت الشعرحبّا لذكرك لا لأن أدعى أديبا

ولك ان تقرأ قصيدته التي اولها :

منح الصبابة اضلعاً وفؤادا . . .

والتي يحن فيها ارق الحنين لوطنه العراق . . .

ياربع لذاتي ومربع جيرتي روى معاهدك الغمام وجادا
لا أبتغي للوصل فيك نهاية أبداً ولا للعيش فيك نفادا
لا والذي سمك السموات العلى واقامهن وما اقام عمادا
لاأرتضي غير الاكارم معشراً كلا ولا غير العراق بلادا

كلا ولا انشي لغير المصطفى واخيه قافيـــة تروق نشادا

ولعله بلغ الغاية في نونيته التي قالها مهنئاً بعض السادة الأشراف :

طرز خديك الـــعـــذاران تطـــرزة الـــورد بريحـــان

هذه النونية التي يصدرها بغزل عرفاني رفيع يرقى فيه مرتقى المتصوفة :

يالا تمـــيّ اليوم في حبـــه مهـــلاً فما شأنكما شاني !

هاموا هُيامي فيك لو انهم قد عرفوا معناك عرفاني

. . .

روحي في روحك ممزوجة وربما تمـــزج روحان (١)

حتى كأني منك في وحـــدة لـــو صح ان يتحد اثنـــان

. . .

اهواهم لم اهو إلاّ هُمُ هوى تلاشى فيه جثماني !

والتي يقول فيها :

زفت اليه خير مزفوفـــة للطهـــــر ينميها الكريمـــان

اهي زليخا يوسف لا ولا ويحك بلقيس سليمـــان

لا بل سليل الوحي زُفّت الى أرْبُعِهِ سورة قـــرآن

والتي يقول فيها :

أخف من طبع الصبا طبعه وحلمـــه أخشب ثهـــلان

لاتكُ محتجاً على فضلـــه ما احتاجت الشمس لبرهـــان

والحبوبي يندى رقة في اخوانياته حتى لكانك منها امام عاشق يتذلل لمعشوق وهو بمواجده هذه يذكرنا باستاذه الشريف الرضي فقد كانهو الاخر يكتب لإخوانه ومابه إلا انه ينسب بهم ويكشف لهم ولنا عن مثل مواجد العشاق . . . !

---

(١) جاء في مروج الذهب ٣ : ٣٧٢ - ٣٧٣ في تحليل ما هية العشق :

« فقال بقراط : هو امتزاج النفسين كما لو امتزج الماء بما مثله عسر تخليصه لحيلة من الاحتيال والنفس الطف من الماء وأرق مسلكاً فمن أجل ذلك لا تزيله الليالي ولا تخلقه الدهور . . »

الثابت ان الحبوبي ينظر الى هذه العلة التي اوردها بقراط في بيته هذا .

يقول الحبوبي :

يامن أبحت له الفؤاد هوى وحجبته عن غيره مَنْعا
واذا نظرتُ وجدته نظراً واذا سمعت وجدته سمعا
ما أرجحتك(١) الراسيات حجى يامن يخفّ على الصبا طبعا

. . .

إني اتخذت هواكم حَسَباً أعزى اليه وحبكّم شرعـا
حسبي من الدنيا هواك ومـا نولت إن ضراً وإن نفعا
واليك ما وشت اليك يدي ماليس تصنع مثله صنعا
بأنامل لم تقض حقكم ولو انني اعلقتها شمعا (٢)

ولك أن تقرأ من بعد قوله :

رسالة شوق قد فضضت ختامها وجدت بها للدهر عقداً مفصلا
فقبلت منها أحرفاً فحسبتني أقبل من كفيك في الطرس أنملا
وشاهدت معناكم به ولربما بدا المرء في آياته وتمثلا (٣)

واخالك ترى معي ان الشاعر بالغ الغاية في هذا الباب ايضاً ذلك لانه يغرف أبداً من قلبه اي انه يصدر عن طبعه والطبع غير التطبع والشعر الشعر ماصدر عن ذات الشاعر وكشف عن عمق اعماقه لالفظاً ينمق أو معنىً يُرّقق ليوضع في قوالب ويوزن بأوزان اصطلح عليها بالوزن والقافية . . . !

اما مراثيه فلعلي عرضت عليك أعلى ماله فيها اريد النونية الفذة التي رثى بها الشاعر السيد حيدر الحلي وأرجو ان تصدقني اذا قلت لك انه لو لم يكن الحبوبي سواها في هذا المجال لكان حسبه شاهداً على سبقه فيه لأنها عالم قائم بذاتها فقد هيىء له فيهامن اسرار الالهام مالا يتأتى إلا للملهمين من العباقرة وهي وحدها كفلية

(١) لعلها ما راجحتك .
(٢) (٣) ديوان ١٥١ ، ١١٠ .

أن ترفع الشاعر الى مرتبة عالية لافي ميدان الرثاء حسب إنما في مجال الشعر العرفاني الصوفي اندر مايكون اليوم في عالمنا المغرق في المادية . . . وقد يلتقي الحبوبي والشيخ محمد رضا الشبيبي في هذا المجال لأن نفحات الصوفية في ديوان الشبيبي ذائعة الانفاس . . .

وبعد هذه الالمامة بديوان الحبوبي (١) إخالك تتفق معي في أن الحبوبي شاعر ظريف نهج نهج الظرفاء واقتفى اثرهم وتهيأت له اسبابهم وان الحبوبي إن هو إلا حلقة ذهبية في سلسلة الظرفاء التي تبدأ بابن الأحنف وما أراها ستنتهي . . .

والآن بعد ان وضعنا الحبوبي الموضع الذي يستحق وجلونا روائعه ، ألنا بعد ذلك مانلحظ به على هذا الشاعر الغنائي الظريف العالي الطبقة الرفيع الشأن ؟

الجواب أن نعم . . . وهذا أمر يصدق على كل شاعر مهما سمت مكانته وعلت منزلته فابو الطيب المتنبي على جلالة قدره له سقطات وعليه مؤاخذات طالما اخذ الناس فيها واعطوا من قديم وان ذلك على اي حال لايقدح في رفيع مكانهولا يقلل من شأو بيانه .

ونحن في هذه الكلمة نجمل لك مؤاخذاتنا ونبثت لك بعض مالحظناه على شعر الرجل . . . فلغته احياناً قد لاتخلو من الفاظ غير شعرية ما كان لها وبأية صورة من الصور أن تلج حرم الشعر فضلا عن حرم غنائي رقيق تشيع فيه الشفافية والموسيقى والا ماتراك تقول في لفظ « جرثومة » و « جراثيم » أو لفظة « غلاصيم »

(١) اكتفينا في هذه الالمامة بعرض اهم اغراض الشاعر إلا ان هناك بعض الاغراض الخاصة مما كان شائعاً في عصر الحبوبي كأن تقرا في الديوان وصف النارجيلة ٣٠٨ واقداح الشاي ٣٠٩ ولك ان تعلم ان اغراضاً مثل هذه طارئة في ديوان الحبوبي وليست أصيلة .

و « سلاليم » و « اقاليم »(١) اقول ماتراك قائلا في الفاظ مثل هذه تقتحم على الحبوبي حرم شعره وتفسد عليه اجواءه السمفونية ا لهامسة ؟ وما تراك قائلا في مثل هذه التعابير ؟

واغتنم ياسعد من هذي الفُرَصْ في ربوع عمها البشر وخَصّ (٢)

كما اننا نلحظ عليه استعمال الغريب في شعره كأن تقرأ له في بعض أوصافه مثل هذه الالفاظ :

علنداة ، ذعلبا ، ختماء ، مخبسة (٣)

ثم قد لايخلو هذا الشعر من عثرات نحوية كأن تقرأ :

ياحبـــذا تلك الليـــالي التي مرت وإن كانت ليالٍ قصار (٤)

أو أن تقـــــرأ :

وانـــظم الشهـــب قـــواف (٥)

إذا خفَّ القوام به نهوضاً تقول له روادفـــه تأنّ (٦)

كما لايخلو هذا الشعر من عثرات لغوية

وسهام لحظك ما أحدّه ! (٧)

أو ربما بدا لك هذا الشعر ضعيف التراكيب مهلهل النسج

آه من ذ ي قوة قد ضعفا بالهوى ليت الهوى لم يخلق (٨)

وقد لايخلو هذا الشعر من حشو مخل . .

وبلا ذنب ــ بدا ــ تقطعه (٩)

تلك التي تركت جسمي بها مرضاً وحرّضت ــ كي تذيب القلب ــ اشواقي (١٠)

وانت ترى الى ذلك ان الحبوبي ربما كرر بعض معانيه وامعن في التكرار واعاد

(١) ـ (٤) ديوان الحبوبي ١٠٠ ـ ١٠١ ، ٦٩ ، ١٤٧ ، ٢٥٩ .

(٥) ـ (١٠) ديوان ٥٩ ، ٢٧١ ، ٢٨٦ ، ١١١ ، ٥٢ ، ٢٥٩ .

الصور وامعن في إعادتها كأن تراه لايني أبداً يردد أوصاف معشوقته عينها فانت منها لاتزال بين قسي الحواجب وليل الشعر ووضح الجبين والى ماهناك . .

وهو كذلك يكرر صور ممدوحيه فممدوحه أبداً :

أخف طبعاً من نسيم الصبا لكنه هضبـــة رضـــوى وقـــارْ

وقد تغلب عليه التلقائية فتبدو معانيه ساذجة عليها طابع النثرية وهذا مزلق طالما انحدر اليه شعراء السهل الممتنع . . !

أفرح إن يدنو اهيل الحمـــى وإن نأوا كابدت احزاني (١)

وإغراقه في التلقائية تقابله من جهة اخرى غلبة الافتعال على بعض شعره إن في لفظه وإن في معناه فأنت قد تقرأ له الطباق المصطنع غير الموفق .

خائفة الحلي إذا تأودت لكنها آمنـــة المطـــارف (٢)

أسروا قلبي وأجروا مدمعي فانا اشكو اسيرا وطليقا (٣)

أو الجناس المتعمل المستثقل :

فمن دمي قد ارتوت حتى روت للناظرين من دمي عندمها (٤)

فهو في غَزْل كمعنى الغَزَل (٥)

وهو يرتج نقا تحت قنا (٦)

وربما نلحظ على بعض قوافيه الجمود أو النبوّ كأن نقرأ له :

اهل الصحارى والمدن . . .

أو دهشة المندهش

البرغش

اخفش

(١) - (٦) : ديوان ١٢٤ ، ١٦٣ ، ٢٦٨ ، ٦٩ ، ٧١ .

اغطش

تختش

ولك ان تقرأ الموشحة (ص ٨١) لتتبين بنفسك مدى هذا القول من الصحة وربما قرأت له بعض قصائد لاقيمة لها تشكو من ضعف أو قلة انفعال والتعمل باد عليها في روحها وهيكلها جميعاً .

ولك ان تقرأ مثلا ابياته في العتاب على الصفحة ١٦١ من ديوانه أو القصيدة ص ٢٩١ والاخرى على ص ١٤٤ اذ هي وسابقتها خلو من العاطفة عامرة بالتعمل .

والتفاوت بيّن في هذا الديوان فتراه تارة يعلوا علو يبلغ الغاية واخرى ينحدر انحدارا يوازي ارتفاعه . . . وبكلمة اخرى انك واجد الدرفي الديوان الى جوار الصدف. . . ومن يدري ! فلعلنا نقرأ في هذا الشعر بعض بواكير الشاعر التي كان ينبغي لها ان تختزل ليسلم منها الديوان . . .

ولك ان تقرأ مثلا شينيته على ص٣٠٥ فهي دون شعره قطعاً ولعلها بعض هذه البواكير التي نحن بصددها. . . ولك من بعد ان تقرأ قصيدتيه على الصفحتين ١٤٤ و ١٤٥ وتوازن بينهما لترى ان البون بعيد بعيد بينهما فالاولى في الحضيض والثانية في القمة . . . ثم لك ان تقرأ الاخرى على ص ١٥٣ فهي قطعاً من اوائل قوله والاخرى على الصفحة ١٥٤ اذ هما حذلقة وتعمل في اللفظ والمعنى معاً والابتذال بادٍ عليهما والنثرية طاغية فيها بافضح صورها . . . !

ثم قد لايخلو هذا الديوان من ابيات مختلة الوزن

أما الخطأ المطبعي فحدث عنه ولا حرج !

حُسَد يرنوك بالطرف الحنق

والصواب يرموك وهو بعد خطأ نحوي لان الصواب يرمونك (١)

ومن الاخطاء الفاضحة :

تريك الصبح غرتها انبلاجاً اذا ما الليـــل طرتها اطـــلا

والصواب اذا ما ليل طُرّتها (٢)

وامثال هذا كثير بوسعك ان تتبينه بنفسك وانت تتصفح الديوان !

هذا بعض ما عنّ فيه لنا في وقفتنا من الحبوبي شاعراً غنائياً عالي الطبقة . . .

وما اجدر ديوان الحبوبي بطبعة علمية تليق بمكان الرجل وتكون له اكرم تحية في دنيا الخالدين . . .

* * *

عاتكة الخزرجي

---

(١) - (٢) ديوان ٦١ ، ١٤٥ .